2 نحو علم الإنسان (الإنثربولوجي) الإسلامي: تعريف ونظريات واتجاهات

أكبر. س. أحمد
المركز القومي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، إسلام آباد، باكستان.
ترجمة د. عبدالغني خلف الله.

- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة، دار البشير، عمّان – المملكة الأردنية الهاشمية (1989) [158 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): (أصل الكتاب باللغة الإنجليزية، ثم ترجم إلى العربية).
- مجال البحث (الكتاب): أسلمة العلوم الإنسانية.

❑ ❑ ❑

يصف الباحث دراسته بأنها:

- عبارة عن تأملات في موضوع معقد،
- دفاع عن موقف غيبي،
- وعرض لمنطق عقدي،
- وجهد يبذل لخدمة اتجاه أخلاقي.

ثم يستعرض المؤلف هدف علم الإنسان (الإنثربولوجي Anthropology) بأنه علم يحاول مساعدتنا لفهم أنفسنا عن طريق دراستنا لثقافات الآخرين وعلى أن الناس (كل الناس) في حقيقتهم وحدة واحدة.

* استعرض المؤلف بعد ذلك البدايات الأولى لعلم الإنسان من القرن الثامن عشر حتى العشرين وبداياته البدائية قبل تحوله إلى دراسات ميدانية.

ثم تكلم عن علاقة علم الإنسان بعلوم أخرى منها: علم تطور الإنسان، علم آثار ما قبل التاريخ، وعلم ثقافة المجتمع، علم الثقافة المقارن. ثم انحدر من هذه العلوم إلى علمي التأريخ وعلم النفس مستعرضاً المفاهيم الأساس لكل علم من هذه العلوم من ناحية، وصلة كل منها بعلم الإنسان من ناحية ثانية.

* وعن علم النفس بالذات:

- يرى المؤلف أن ما يقوم به علم النفس من إسهامات لها وزنها في مجال تفهم سلوك الناس الاجتماعي، وبهذا الإطار يتفق اهتمام علم النفس باهتمام علم الإنسان.
- كما يعتقد المؤلف أنه كان لفرويد تأثير كبير على علم الإنسان الاجتماعي وخاصة في موضوع أصل الطوطمية.
- وأن لكل من يعمل في الدراسات الميدانية لعلم الإنسان أن يكون ممارساً لعلم النفس بتوسع كبير لما لهما من علاقة كبيرة بينهما.
- كما يرى المؤلف أن الصلة بين علم الإنسان وعلم النفس صلة تأريخية بحتة.

* ثم يتطرق المؤلف بعد ذلك إلى مجال العمل الميداني للباحثين في علم الإنسان ويرى أن على علماء الإنسان أن يضعوا نظرياتهم عن النظم الاجتماعية موضع التجربة. لأن مختبرهم هو المجتمع ذاته، وعليهم (علماء الإنسان) أن يختبروا نظرياتهم عن النظم الاجتماعية والثقافية وتداخلاتها من خلال عملهم الميداني وتدريب قدراتهم على الملاحظة كل من موقعه داخل المجتمع المدروس أوالمجتمع المعني بالدراسة.

* ثم يدخل المؤلف بعد ذلك في الأسس النظرية لعلم الإنسان الغربي ويرى:

- أن المهمة الأولى لعالم الإنسان هي الوصف، ولا شك في أن الحقائق قائمة حتى قبل أن نعمل على تحليلها.
- وأن بؤرة الاهتمام في علم الإنسان الاجتماعي إنما هي: البنية الاجتماعية للجماعة، صلة القربى، النظام السياسي، العقائد والسحر والدين، وعلم النفس الاقتصادي.

ثم يتناول المؤلف المستشرقين (ومعظمهم كانوا من المبشرين المسيحيين) وخطواتهم الأولى في علم الإنسان، ويضرب أمثلة كثيرة على عدم فهمهم

العميق لما كان يدور حولهم، وإلى الحقد الديني على الإسلام والمسلمين والرسول الأكرم ﷺ من جهة، وعلى عدم موضوعيتهم وتحيزهم وعنصريتهم من جهة ثانية.

* كل ما ذكر أعلاه كان في الباب الأول للكتاب، أما في بابه الثاني فإنه يضع اللمسات الأولى لعلم الإنسان الإسلامي:

- فيبتدئ تأريخ علم الإنسان بابن خلدون، ويرى المؤلف أن حقيقة مأساة علم الإنسان وعلم الإجتماع أنهما لم يتطورا بعده، أي بعد ابن خلدون.
- ثم يتطرق إلى البيروني (973-1048م) ويلقبه المؤلف «بابي علم الإنسان»، وكذلك يعرج في تقليبه لصفحات التراث إلى ابن بطوطة والمسعودي وغيرهم من مؤسسي هذه العلوم.
- ليصل المؤلف إلى تعريف علم الإنسان الإسلامي بأنه: «دراسة المجتمعات الإسلامية على يد علماء مسلمين ملتزمين». ومثل هذا التعريف يعتبر أقرب إلى التعريف الإجرائي مما هو تعريف نظري.

* ومن التعريف ينطلق المؤلف إلى إجراء أو هدف تحليل السلوك الاجتماعي للمسلم، ويرى أن المسلم يقدر الأمر على حسب فائدته أو ضرره للمنظومة الاجتماعية التي هو جزء منها. فالمسلم يبقى دائماً جزءً من الأمة ومن جماعته (وهنا يتناقض علم الإنسان الإسلامي مع علم الإنسان الغربي كلية). فالمجتمع المسلم وسلوك أفراده أمر واضح الحدود والأهداف، ورسالة الإنسان المسلم تنحصر في تطويع المجتمع لأحكام الله سبحانه وتعالى.

أما كيف يعالج المسلمون موضوع علم الإنسان الإسلامي في إطار إيمانهم بالإسلام فهو يستشهد بعلي شريعتي عندما يقول بأن الدين طريق يؤدي بالمسلم إلى الوصول إلى الحق والنور (الصراط المستقيم).

* ثم يبدأ المؤلف بتصنيف المجتمعات الإسلامية إلى نماذج متعددة:

- نموذج القطاعات القبلية الإسلامية (يرى أنها قائمة إلى اليوم)

- النموذج العثماني (ويسميه المؤلف مجتمع الثكنة في الإسلام)، وهو على عكس النموذج الأول لأنه يعمل في الأساس على اقتلاع الإنتماء القبلي والإقليمي.
- مجتمع الحضارات الإسلامية حول الأنهار الكبرى (السند، دجلة، النيل. . . .الخ).
- مجتمعات إسلامية في ربقة الاستعمار الغربي (في القَرنين الأخيرين).
- مجتمع صحوة الإسلام (ويضرب مثلاً عليه بباكستان وإيران).

* وبعد تصنيف المجتمعات الإسلامية يعرج المؤلف إلى وصف المجتمع الإسلامي الأول في عهد الرسول ﷺ. ويأخذ بأدواره الاجتماعية كأب وزوج وصديق. . . .الخ، ليلقي الضوء من خلال هذا الوصف على بعض المبادئ الأساس للسلوك الاجتماعي الإسلامي كما جسّمها رسول الله ﷺ في كل سلوكه وتعامله مما تزخر به سيرته العطرة.

* ثم يطرح المؤلف في آخر كتابه توصياته كعالم إنسان مسلم يريد أن يؤسس لعلم إنسان إسلامي، ويمكن إجمال توصياته بالآتي:

1. كتابة تاريخ اجتماعي ميسَّر لحياة الرسول ﷺ لمخاطبة أكبر عدد من القراء: مسلمين وغير مسلمين على حد سواء.
2. تأليف كتاب نموذجي رفيع المستوى في علم الإنسان وترجمته إلى اللغات الكبرى في العالم الإسلامي بمستوى طلبة المرحلة الجامعية الأولى، وفيه أجزاء خاصة بكل منطقة ثقافية كبرى.
3. إفراد كتاب في علم الإنسان لكل منطقة إسلامية وتوزيعه في العالم الإسلامي (يضرب مثالاً على ذلك ترجمة اسماعيل الفاروقي لكتاب محمد حسين هيكل «حياة محمد» 1976)، ثم يقوم المؤلف بترشيح دولة المغرب عن الدول العربية، وباكستان عن جنوب آسيا، وإندونيسيا عن جنوب شرق آسيا كنماذج ثقافية جغرافية مميزة.
4. تنظيم وتشجيع زيارات لعلماء الإنسان تغطي البلاد الإسلامية والقيام بمشروعات إسلامية مشتركة.

5. القيام بدراسات مقارنة طويلة الأجل عن القطاعات الاجتماعية، تساعدنا على فهم أفضل من ناحية، وعلى التوصل إلى استنتاجات تتعلق بالمجتمع الإسلامي ومشاكله العاجلة المعاصرة من ناحية ثانية (الفلاحون، القبائل، المدن... الخ).

6. بناء أو وضع إطار واضح للدراسات الاجتماعية العملية والخاصة بالتنمية ليتيسر تخطيط أفضل للمجتمع الإسلامي في القرن العشرين (الكتاب مؤلف عام 1989).

7. وأخيراً يوصي المؤلف باستخراج وجمع الأجزاء المتعلقة بعلم ثقافة المجتمع وبعلم الإنسان من كتابات المسلمين الكبار وإفراد مجموعة مجلدات خاصة بها (يضرب مثلاً بمحاولته هو ـ أي المؤلف ـ في كتابه «المجتمع الإسلامي: قراءات في الفكر والتنمية والبنية»، وهو يحرض علماء التراث الإسلامي للولوج في مثل هذه المحاولات.

* وفي خاتمة كتابه يشخّص المؤلف الأخطاء الكبيرة التي وقع بها علماء الإنسان بافتراضهم أن التيارات العلمانية في المجتمع الإسلامي لا تعدو أن تكون تطورات منطقية لما بعد الحرب العالمية الثانية.

ويضرب مثالاً على ذلك ما ظنه علماء إنسان الغرب عن إيران من خلال ظنهم أن الإيرانيين يبدون تفاعلهم الكبير مع حكومة الشاه تاركين الإسلام خلفهم، ثم لم ير الغرب إلا بالثورة الإسلامية الشعبية وهي تطيح بحكم الشاه. ليدلل المؤلف على عدم فهم علماء الغرب لحقيقة المجتمعات الإنسانية الإسلامية وجهلهم بها.

ثم يستشهد المؤلف بما كتبه كلفورد غيرتز (1968) ساخراً من زملائه الغربيين لتسرعهم في إعطاء الأحكام والتعميمات على المجتمعات الإسلامية وناصحاً إياهم بقوله:

«ما زال علينا أن ننتظر قليلاً - في تقديري - حتى في تونس ومصر (كمرشحتين كبيرتين نحو العلمانية والإبتعاد عن الإسلام) قبل أن نرى حركة

واضحة للعيان نحو «إسلام بلا دين» لتتقدم رافعة لواءً كتب عليه «لقد مات الله»، ص 115.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

علم الإنسان الإسلامي، السلوك الاجتماعي للإنسان من وجهة نظرإسلامية، دراسات ميدانية لمجتمعات إسلامية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

* كان يمكن للباحث أن يدخل وبعمق أكثر في التراث الإسلامي في مجال علمي الإجتماع والإنسان وخاصة في مقدمة ابن خلدون وغيره. وربما كانت اللغة العربية التي نشر بها هذا التراث عائقاً أمامه للدخول بهذا العمق.

* وكان يمكنه كذلك أن يدخل أولاً في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة ليستشف منها المعالم الرئيسة للمجتمع المسلم وخاصة مجتمع المدينة المنورة. ورغم أن المؤلف دخل في سيرة النبي ﷺ كنموذج للفرد الإنسان وكقدوة للمجتمع الإسلامي، إلا أن مجتمع المدينة المنورة سواءً في زمن الرسول ﷺ أوالخلافة الراشدة، قد أسست للمجتمع الإسلامي ورسمت أفضل صورة له وربطت بين التأريخ والإجتماع والإنسان بطريقة تكاملية شمولية لبناء المجتمع المسلم.

* إلا أن هاتين الملاحظتين أعلاه لا تقللان من القيمة العلمية والموضوعية التي تميز بها الكتاب والطروحات الجريئة لعالم إنسان مسلم يتحدى الإطار النظري والتطبيق الميداني لعلم إنسان غربي درسه هو بنفسه على يد علماء الغرب ومنظريهم.

❑ ❑ ❑